

ڪامل ڪيلاني

حبیب الشعب



حَيِّبُ الشَّعْبِ

حَبِيبُ الشَّعْبِ

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٧٦١٠

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٠٥٢٧

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Kalimat Arabia.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	١- عَيْنُ الدُّمُوعِ
١٧	٢- نَشْأَةُ الْفَارِسِ
٢١	٣- الْفَرَجُ بَعْدَ الصَّيْرِ
٢٩	٤- الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ
٣٧	٥- فَرَحَةُ الشَّعْبِ

الفصل الأول

عَيْنُ الدُّمُوعِ

١

تَلْمِيزِي الْعَزِيزَ. لَعَلَّكَ تَقُولُ فِي نَفْسِكَ: كَيْفَ تَتَأَلَّفُ عَيْنُ الْمَاءِ مِنَ الدُّمُوعِ؟
هَذَا كَلَامٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ. فَلَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ تَتَجَمَّعَ الدُّمُوعُ، وَيَتَأَلَّفَ مِنْهَا عَيْنُ مَاءٍ.
وَأَنْتِ أَيْهَا الصَّغِيرُ الْعَزِيزُ صَادِقُ فِيمَا تَقُولُ. كَمَا أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ فِي اعْتِقَادِكَ أَنَّ عَيْنَ
الْمَاءِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَأَلَّفَ مِنَ الدُّمُوعِ. وَلَكِنَّ بَعْضَ الْقَدَمَاءِ — مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ — كَانُوا
يَظُنُّونَ ذَلِكَ.

وَلَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْعَيْنِ: مَا حِكَايَتُهَا؟ وَأَيْنَ تَقَعُ؟ فَاسْمَعُ — يَا
بُنَيَّ — الْجَوَابَ: عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ، وَفِي سَفْحِ جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ الْبِلَادِ الَّتِي تَقَعُ
عَلَى ذَلِكَ الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، كَانَتْ تَنْبُعُ «عَيْنُ الدُّمُوعِ ...» لِمَاذَا سُمِّيَتْ هَذِهِ الْعَيْنُ هَذَا الْاسْمَ؟

سَبَبُ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ بَطْلٌ فِي مِثْلِ سَنِكَ، كَانَ صَبِيًّا لَمْ يَتَجَاوَزِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ،
نَشَأَ شَجَاعًا يُحِبُّ الْمُغَامَرَةَ.

وَقَدْ تَعَوَّدَ مُنْذُ صَغَرِهِ رُكُوبَ الْحَيْلِ؛ فَكَانَ أَحْسَنَ الْأَوْقَاتِ عِنْدَهُ تِلْكَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي
يَقْضِيهَا عَلَى ظَهْرِ حِصَانِهِ، يَجْرِي بِهِ هُنَا وَهُنَاكَ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَقَعُ حُرُوبٌ بَيْنَ بِلَادِهِ وَبَيْنَ الْأَعْدَاءِ، فَكَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَدْخُلَ الْحَرْبَ
مَعَ قَوْمِهِ، فَيُدَافِعَ عَنْ وَطَنِهِ، وَيَشْتَرِكَ فِي هَذَا الْعَمَلِ الشَّرِيفِ. نَعَمْ! كَانَ يَتَمَنَّى ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ كَثِيرًا مَا يَسْمَعُ مِنْ رَئِيسِ قَوْمِهِ: «يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ لَا تَزَالُ صَغِيرًا. وَعَدَا سَتَكْبُرُ وَتَكُونُ
قَادِرًا عَلَى الْإِشْتِرَاكِ فِي الْحُرُوبِ، كَمَا تَشَاءُ.»

كَانَ الصَّبِيُّ يَوَدُّ أَنْ تَمَرَ الْأَيَّامُ سَرِيعَةً وَيَكْبَرَ، وَتَتَحَقَّقَ أُمْنِيَّتُهُ فِي ضَرْبِ الْأَعْدَاءِ، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْوُطَنِ الْعَزِيزِ. وَكَانَ الصَّبِيُّ يُفَكِّرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقَعُ فِيهَا الْقِتَالُ: «أَلَيْسَ لِي مِنْ عَمَلٍ أَقُومُ بِهِ، وَأُسَاعِدُ بِهِ جَيْشَ الْبِلَادِ؟

إِنَّ هُنَاكَ بَعْضَ الْأَعْمَالِ الْخَفِيفَةِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِهَا أُمَّتَالِي مِنَ الْوِلْدَانِ؛ فَأَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقِفَ فِي الصُّفُوفِ الْخَلْفِيَّةِ: أَتَأَوَّلُ قَوْمِي النَّبْلَ، كَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْدُمَ الْجَرْحَى: «أَسْقِيهِمُ الْمَاءَ وَأَضْمَدُ مَا بِهِمْ مِنْ جُرُوحٍ!»

وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُكَوِّنَ فِرْقَةً مِنَ الصَّبْيَانِ الَّذِينَ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، سَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ: «فِرْقَةُ الْأَسْوَدِ» ...

وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ الشَّدِيدَةِ الْحَرِّ. دَقَّتِ الطُّبُولُ مُعْلَنَةً هُجُومَ الْأَعْدَاءِ عَلَى أَرْضِ الْوُطَنِ. أَسْرَعَ إِلَى السَّلَاحِ كُلُّ قَادِرٍ عَلَى الرَّمْيِ بِالسَّهَامِ، وَالطَّعْنِ بِالرَّمَاكِ، وَالضَّرْبِ بِالسُّيُوفِ. وَأَسْرَعَ كُلُّ مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنَ النِّسَاءِ وَالصَّبْيَانِ فِي الانْضِمَامِ إِلَى الْجَيْشِ، لَخِدْمَةِ الْمُحَارِبِينَ. وَأَسْرَعَ الصَّبِيُّ الصَّغِيرُ يَأْخُذُ مَكَانَهُ فِي الصُّفُوفِ الْخَلْفِيَّةِ: يُطْعِمُ الْخِيُولَ، وَيَخْدُمُ مَنْ يُجْرَحُ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَسْقِي الْمَاءَ ...

اشْتَدَّتِ الْمَعْرَكَةُ، وَسَقَطَ كَثِيرٌ مِنَ الْجَرْحَى، وَثَقُلَتْ مُهِمَّةُ الصَّبِيِّ الشَّجَاعِ، كَمَا ثَقُلَتْ مُهِمَّةُ فِرْقَتِهِ مِنَ الصَّبْيَانِ الشَّجْعَانِ، وَمُهِمَّةُ النِّسَاءِ الْقَادِرَاتِ عَلَى خِدْمَةِ الْجَرْحَى وَتَقْدِيمِ الْمُسَاعَدَةِ الْمُمْكِنَةِ لِلْمُحَارِبِينَ ...

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَطِشَ الصَّبِيُّ عَطَشًا شَدِيدًا، وَلَكِنْ نَسِيَ أَنَّهُ عَطِشَانُ، فَقَدْ كَانَ كُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَسْقِيَ الْجَرْحَى وَيُسْعِفَ الْمُصَابِينَ، وَيَرَى أَنَّهُمْ أَحَقُّ مِنْهُ بِالْمَاءِ، الَّذِي كَانَ يَنْقُلُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ... وَزَاحَ يُوَدِّي هَذَا الْوَاجِبَ الْعَظِيمَ وَهُوَ مَسْرُورٌ ...

كَانَتْ أُمُّهُ تَرَاهُ وَهُوَ مُجِدٌّ فِي خِدْمَةِ الْجَرْحَى، فَتَشَجَّعُهُ، وَتَفْرَحُ بِهِ، وَتُسَرُّ مِنْهُ ... ثُمَّ أَشْفَقَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَطَشِ الَّذِي أَصَابَهُ بَعْدَ الْمَجْهُودِ الْكَبِيرِ الَّذِي بَذَلَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الشَّدِيدِ ... وَوَدَّتْ أَنْ تَرَوْهُ وَلَوْ بِدُمُوعِ عَيْنَيْهَا، فَقَدْ كَانَتْ لَا تَمْلِكُ غَيْرَهَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ

...

حَدَّثَ — فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ — أَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ جُنْدِيٍّ مِنَ الْأَعْدَاءِ سَهْمًا؛ فَسَقَطَ الصَّبِيُّ الشَّجَاعُ فِي الْمِيدَانِ قَتِيلًا ... وَقَبْلَ أَنْ يَلْفِظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ^١ حَمَسَ زُمَلَاءَهُ، وَأَوْصَى بِالِانْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ.

كَانَ سَقُوطُ الصَّبِيِّ فِي مِيدَانِ الشَّرَفِ مَثَلًا أَعْلَى لِلتَّضَحُّيَةِ. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَشْعُرُ بِالْفَخْرِ وَالْعِزَّةِ، وَكَانَتْ تَذْكُرُ آخِرَ مَا قَامَ بِهِ الصَّبِيُّ مِنْ أَعْمَالٍ. كَانَ يَسْقِي الْجُرْحَى، وَيُفَضِّلُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِي عَطَشٍ شَدِيدٍ، وَكَانَ يَجِدُ مَشَقَّةً شَدِيدَةً فِي الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَنْسَى تَعَبَهُ وَآلَمَهُ مَا دَامَ يُخَفِّفُ آلَمَ الْمَجَاهِدِينَ.

وَتَذَكَّرَتْ أُمُّهُ أَنَّهَا تَمَنَّتْ لَوْ تَرَوِي وَلَدَهَا بِدُمُوعِ عَيْنَيْهَا، وَأَرَادَتْ أَنْ تُخَلِّدَ عَمَلَهُ الْعَظِيمَ بِشَيْءٍ يَذْكُرُهُ النَّاسُ فِي الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ. فَمَاذَا تَفْعَلُ؟ إِنَّهَا لَا تَمْلِكُ إِلَّا دُمُوعَهَا. غَلَبَهَا الْبُكَاءُ، وَانْحَدَرَتْ دُمُوعُهَا مِنْ عَيْنَيْهَا، وَتَجَمَّعَتْ هَذِهِ الدُّمُوعُ حَتَّى تَأَلَّفَتْ عَيْنٌ مِنَ الْمَاءِ، وَكَانَتْ عَيْنًا عَذْبَةً حُلْوَةً. وَأَحْسَسَتِ الْأُمُّ حِينَئِذٍ بِالسَّعَادَةِ، بَعْدَ شُعُورِهَا بِالْفَخْرِ وَالْاعْتِرَازِ.

وَعَرَفَ النَّاسُ فِي الْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ قِصَّةَ هَذِهِ الْعَيْنِ، فَأَقْبَلُوا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، لِيَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ الْعَجِيبَ. وَسَمَّوْا هَذِهِ الْعَيْنَ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ: «عَيْنُ الدُّمُوعِ».

هَذِهِ أُسْطُورَةٌ «عَيْنِ الدُّمُوعِ»، أَيُّهَا التِّلْمِيزُ الْعَزِيزُ. فَمَاذَا حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟

٢

حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ عُرِفَتْ هَذِهِ الْعَيْنُ ... كَانَ النَّاسُ كَثِيرًا مَا يَزُورُونَهَا، وَيَتَفَرَّجُونَ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ مِيَاهِهَا، وَيَمْلِكُونَ الْأَوَانِي الْفَخَّارِيَّةَ مِنْهَا.

وَحَدَّثَ أَنْ مَرَّ بِهِذِهِ الْعَيْنِ فَارِسٌ مِنَ الْفُرْسَانِ الْأَبْطَالِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي قِصَّتَهَا، أَوْ يَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ أَمْرِهَا ... وَرَأَى الْفَارِسُ بِجَوَارِ الْعَيْنِ فَلَاحًا عَجُوزًا، أَقْبَلَ مِنْ مَرْعَةٍ قَرِيبَةٍ، لِيَمْلَأَ وَعَاءً مِنْ مَاءِ الْعَيْنِ، وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ صَبِيٌّ صَغِيرٌ.

^١ وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة: وقبل أن يموت.

قَالَ الْفَارِسُ الْفَتَى: إِنَّ وُجُودَ هَذِهِ الْعَيْنِ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنَ الصَّحْرَاءِ أَمْرٌ غَرِيبٌ! لَقَدْ صَيَّرَتِ الْعَيْنُ هَذِهِ الْبُقْعَةَ وَاحَةً^٢ خَضْرَاءَ، وَلَوْلَاهَا لَكَانَتْ قَاحِلَةً جَرْدَاءَ^٣! وَهَذَا الرَّجُلُ الْعَجُوزُ أَمْرُهُ غَرِيبٌ كَذَلِكَ: يَزْرَعُ النَّخِيلَ، وَأَشْجَارَ الزَّيْتُونِ، وَهِيَ أَشْجَارٌ لَا تُنْمِرُ إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ! فَكَيْفَ يَأْمَلُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ ثَمَارِ مَا يَزْرَعُ، وَهُوَ عَجُوزٌ هَرِمٌ؟

نَظَرَ الْفَارِسُ إِلَى الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ، فَوَجَدَ فِي وَجْهِهِ أَمَارَاتِ الشَّجَاعَةِ، وَفِي عَيْنِهِ لَأْلَاءٌ^٤ الْفُطْنَةِ وَالذِّكَاةِ. اسْتَأْذَنَ الْفَارِسُ مِنَ الْعَجُوزِ لِيَشْرَبَ مِنَ الْوَعَاءِ. أَذِنَ الْعَجُوزُ لِلْفَارِسِ، فَشَرِبَ حَتَّى ارْتَوَى.

تَقَدَّمَ الْفَارِسُ لِلْعَجُوزِ، يَشْكُرُ لَهُ مَا قَدَّمَ مِنْ صَنِيعٍ^٥. قَالَ الْفَارِسُ: «مَا أَعَذَّبَ هَذَا الْمَاءُ! مَا شَرِبْتُ طُولَ حَيَاتِي مَاءً أَعَذَّبَ مِنْ مَاءِ هَذِهِ الْعَيْنِ. إِنَّ قَلِيلًا مِنْهُ أَرْوَانِي، وَأَزَالُ عَنِّي الظَّمَأَ».

قَالَ الْعَجُوزُ: «إِنَّ لِهَذِهِ الْعَيْنِ قِصَّةً غَرِيبَةً، أَيُّهَا الْفَارِسُ! يَعْرِفُهَا كُلُّ مَنْ فِي هَذَا الْبَلَدِ، وَالْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ».

قَالَ الْفَارِسُ: «مَعْدِرَةٌ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ هَذِهِ الْقِصَّةَ، فَأَنَا غَرِيبٌ عَنْ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَقَدْ وَصَلْتُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ فِي السَّفَرِ، حَتَّى سَاقَنِي الْحَظُّ إِلَى هَذِهِ الْعَيْنِ».

قَالَ الْعَجُوزُ: «لَا عَلَيْكَ». وَأَخَذَ يَقْصُ عَلَى الْفَارِسِ قِصَّةَ الْعَيْنِ.

فَدَهَشَ الْفَارِسُ مِمَّا سَمِعَ، وَقَالَ لِلْعَجُوزِ مُتَعَجِّبًا: «مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ فِي مَائِهَا تِلْكَ الْعُدُوبَةَ النَّادِرَةَ! إِنَّهَا تَخْلِيْدٌ عَظِيمٌ لِلْبَطْلِ الْفِدَائِيِّ الصَّغِيرِ، مِنْ أُمِّهِ الرَّحِيمَةِ!».

قَالَ الْعَجُوزُ: «نَعَمْ! وَمَا زِلْنَا نَذْكُرُ هَذَا الصَّبِيَّ وَتَضَحِيَّتَهُ. كُلَّمَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْعَيْنَ الْعَذْبَةَ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْ صَحْرَائِنَا جَنَّةً خَضْرَاءَ».

قَالَ الْفَارِسُ: «أَلَسْتُ مَعِيَ — يَا وَالِدِي — فِي أَنَّ الْعَمَلَ الْعَظِيمَ قَدْ يَجْعَلُ مِنَ الْأَرْضِ الْقَاحِلَةِ عُيُونًا عَذْبَةً، وَأَشْجَارًا ذَاتَ أَزْهَارٍ وَثَمَارٍ؟»

^٢ واحة: مكان في الصحراء فيه مياه وخضرة.

^٣ قاحلة جرداء: لا نبات فيها ولا ماء.

^٤ لألاء: لمعان.

^٥ صنيع: فضل ومعروف.



فَأَجَابَهُ الْعَجُوزُ: «أَنَا مَعَكَ يَا بَنِيَّ، وَلَعَلَّكَ لَا تَدْهَشُ حِينَ تَجِدُنِي أَرْزَعُ أَشْجَارَ النَّخِيلِ
وَالزَّيْتُونِ. أَنَا لَا أَمَلُ أَنْ أَكُلَ مِنْ ثَمَارِ مَا أَرْزَعُ. وَلَكِنْ عَلَيْنَا — جَمِيعًا — أَنْ نَعْمَلَ، فَإِذَا لَمْ
أَسْتَفِدْ أَنَا مِمَّا أَبْدُلُ مِنْ جُهْدٍ، فَإِنَّ الْأَجْيَالَ الْقَادِمَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَفِيدَ ... وَلَكِنْ يَضِيعُ عَمَلُ
الْمُجِدِّينَ عَلَى كُلِّ حَالٍ.»

نَظَرَ الْفَلَّاحُ الْعَجُوزُ إِلَى الْفَارِسِ نَظْرَةً فَاحِصَةً، فَرَأَى فِي يَدِهِ لَجَامَ فَرَسٍ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ، قَدْ تَحَلَّى بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، إِذَا سَقَطَتْ عَلَيْهِ أَشْعَةُ الشَّمْسِ سَطَعَ^٦ مِنْهُ بَرِيقٌ وَهَّاجٌ^٧ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ...

قَالَ الْفَلَّاحُ لِلْفَارِسِ: «إِنَّ هَذَا اللَّجَامَ رَائِعٌ! أَيْنَ الْفَرَسُ الَّذِي يُوَضَعُ فِي فَمِهِ هَذَا اللَّجَامُ؟ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فَرَسًا عَجِيبًا! فَهَلْ فَقَدْتَ هَذَا الْفَرَسَ، فَجِئْتَ إِلَى بِلَادِنَا تَبْحَثُ عَنْهُ؟»

أَجَابَ الْفَارِسُ: «كَلَّا، يَا سَيِّدِي لَمْ أَفْقِدْ فَرَسًا.»

— «إِذَنْ مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟»

— «جِئْتُ هُنَا لِأَبْحَثَ عَنِ الْجَوَادِ الْمُجَنِّحِ، عَنِ الْحِصَانِ الطَّائِرِ الَّذِي لَهُ أَجْنَحَةٌ كَأَجْنَحَةِ

الطُّيُورِ! لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ يَقْضِي أَكْثَرَ وَقْتِهِ طَائِرًا فَوْقَ قِمَّةِ هَذَا الْجَبَلِ الْعَالِي.»

عَجِبَ الْفَلَّاحُ مِنْ كَلَامِ الْفَارِسِ، وَقَالَ لَهُ: «مَا رَأَيْتَ هَذَا الْجَوَادَ — يَا بُنَيَّ — مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ! ثُمَّ إِنَّكَ، أَيُّهَا الْفَارِسُ، تَطْلُبُ شَيْئًا عَزِيزًا. إِنَّ الْحُصُولَ عَلَى هَذَا الْجَوَادِ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ وَمُتَابَرَةٍ؛ فَهُوَ جَوَادٌ مُشَاكِسٌ عَنِيدٌ، لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا أَبْطَالُ الرِّجَالِ!»

قَالَ الْفَارِسُ: «لَقَدْ عَزَمْتُ عَزْمًا أَكِيدًا أَنْ أَبْذُلَ كُلَّ مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ جُهْدٍ فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَى هَذَا الْجَوَادِ، وَلَيْسَ يُخِيفُنِي مَا يَنْصَفُ بِهِ مِنَ الْمُشَاكَسَةِ وَالْعِنَادِ، فَعِنْدِي مِنَ الصَّبْرِ وَالْعَزْمِ مَا أَقْوَى بِهِ عَلَى مُغَالَبَةِ الصَّعَابِ.»

كَانَ الْجَوَادُ الْمُجَنِّحُ كُلَّمَا جَاءَ فَصَلَ الصَّيْفَ هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ. وَكَانَ إِذَا هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ، طَوَى جَنَاحَيْهِ الْفَضِيِّينَ، وَأَسْلَمَ قَدَمَيْهِ لِلرَّيْحِ،^٨ فَيَجْرِي فِي السُّهُولِ وَالْوُدْيَانِ فِي سُرْعَةٍ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ».

^٦ سطع: ظهر وارتفع.

^٧ وهاج: متقد لامع.

^٨ أسلم قدميه للريح: جرى مسرعًا.

وَهُنَاكَ يَشْرَبُ مِنَ الْعَيْنِ حَتَّى يَرْتَوِي ... ثُمَّ يَتَمَرَّغُ عَلَى الْحَشَائِشِ الْخَضِرِ الَّتِي حَوْلَهَا.
وَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ فِي الْبُقْعَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْعَيْنِ، لَمْ يَعُدِ الْحِصَانُ يَنْزِلُ عِنْدَهَا كَثِيرًا، فَأَصْبَحَ لَا
يَزُورُ تِلْكَ النَّوَاحِيَ إِلَّا نَادِرًا، وَأَصْبَحَ الشَّبَابُ وَالْأَطْفَالُ لَا يَرُونَهُ إِلَّا مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا.

٥

وَعَادَ الْفَارِسُ، يَسْأَلُ الْفَلَّاحَ الْعَجُوزَ: «هَلْ رَأَيْتَ — أَيُّهَا الْوَالِدُ — الْأَشْهَبَ^٩ الْمُجَنِّحَ؟ وَكَمْ
مَرَّةً رَأَيْتَهُ؟ وَمَتَى رَأَيْتَهُ آخِرَ مَرَّةٍ؟»
أَجَابَ الْفَلَّاحُ: «إِنِّي لَمْ أَقْضِ حَيَاتِي كُلَّهَا هُنَا. وَلَكِنِّي جِئْتُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ مُهَاجِرًا،
بَاحِثًا عَنِ الرِّزْقِ، فِي فِلَاحَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ كَثِيرًا عَنْ هَذَا الْجَوَادِ. فَلَمَّا أَقْمْتُ فِي
هَذِهِ الْبُقْعَةِ، رَأَيْتُهُ مَرَّاتٍ قَلِيلَةً. آخِرَ مَرَّةٍ رَأَيْتُهُ فِيهَا مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ، كَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ
الظُّهْرِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَقَدْ اسْتَلَقُوا تَحْتَ الْأَشْجَارِ، يَقِيلُونَ فِي ظِلَالِهَا^{١٠} وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ
عَنَاءِ الْعَمَلِ فِي الْمَزْرَعَةِ. وَكُنْتُ لَا أَرَاهُ — فِي كُلِّ مَرَّةٍ — إِلَّا مُصَادَفَةً ... وَكَانَ يَبْهَرُ نَظْرِي
هَذِهِ الْأَشْعَةُ الَّتِي تُرْسِلُهَا أَجْنَحَتُهُ، فَتَلْمَعُ فِي الدُّنْيَا وَتَبْرُقُ».

٦

كَانَ الشَّيْخُ يَتَحَدَّثُ مَعَ الْفَارِسِ، وَالصَّبِيُّ بِجَوَارِهِمَا، يَسْتَمِعُ إِلَى حِوَارِهِمَا.
فَالْتَفَتَ الصَّبِيُّ إِلَى الْفَارِسِ، قَائِلًا: «لَقَدْ رَأَيْتُ الْجَوَادَ الْمُجَنِّحَ. رَأَيْتُهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ. وَأَوَّلُ
مَرَّةٍ رَأَيْتُهُ فِيهَا، كَانَ شَيْئًا يُلُوحُ فِي الْجَوِّ، مُرْتَفِعًا فِي السَّمَاءِ، أَشْبَهَ بِطَائِرٍ كَبِيرٍ أَبْيَضَ، لَمْ
يَلْبَثْ أَنْ غَابَ عَنْ نَازِرِي. وَحِينَئِذٍ قُلْتُ لِنَفْسِي: لَعَلَّهُ الْأَشْهَبُ الْمُجَنِّحُ الَّذِي طَالَمَا سَمِعْنَا
بِهِ ...»
ثُمَّ تَقَدَّمَ الصَّبِيُّ إِلَى الْفَارِسِ، قَائِلًا: «هَلْ أَخْبَرْتُكَ بِآخِرِ مَرَّةٍ رَأَيْتُ فِيهَا الْجَوَادَ الْمُجَنِّحَ؟
كَانَ ذَلِكَ أَمْسَ الْقَرِيبِ».

^٩ الأشهب: الذي يجمع لونه بين البياض والسواد.

^{١٠} يقيلون في ظلالها: يجلسون في ظلها وقت الحر.

عَجَبَ الْفَارِسُ مِمَّا سَمِعَ، وَقَالَ لِلصَّبِيِّ: «مَرَحَى لَكَ! مَا أَحْسَنَ قَوْلَكَ، أَيُّهَا الصَّبِيُّ الذَّكِيُّ! حَدِّثْنِي — أَيُّهَا الْعَزِيزُ — كَيْفَ لَقَيْتَهُ؟»

قَالَ الصَّبِيُّ بِاسْمًا: «كَثِيرًا مَا أَجِئُ إِلَى هَذِهِ الْعَيْنِ. وَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ صُنْعِ سُفْنٍ وَمَرَكَبٍ مِنَ الْوَرَقِ. إِنِّي أَصْنَعُ الْكَثِيرَ مِنْهَا فِي أَوْقَاتِ فَرَاحِي، ثُمَّ أُسِيرُ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ»، وَأَضَعُ فِي مَائِهَا مَا صَنَعْتُ مِنَ الْمَرَكَبِ، وَأَمْتَعُ نَفْسِي بِرُؤْيَيْهَا وَهِيَ تَعُومُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ. وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ — فِي أَثْنَاءِ اللَّعِبِ — بَرِيقَ الْجَوَادِ الْمُجَنِّحِ الَّذِي تَسْأَلُ عَنْهُ. لَقَدْ كُنْتُ — فِي كُلِّ مَرَّةٍ رَأَيْتُهُ فِيهَا — أَتَمَنَّى أَنْ يَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَرْكَبَ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ يَطِيرَ بِي إِلَى الْقَمَرِ ... فَلَيْتَ الْأَيَّامَ تُحَقِّقَ لِي هَذِهِ الْأُمْنِيَّةَ ... لَيْتَهَا تَتَحَقَّقُ!

وَشَيْءٌ آخَرُ أَحَبُّ أَنْ أُخْبَرَكَ بِهِ، أَيُّهَا الْفَارِسُ: لَقَدْ لَحَظْتُ أَنَّ هَذَا الْجَوَادَ يُسْرِعُ فِي طَيَرَانِهِ، إِذَا سَمِعَ مِنِّي أَدْنَى صَوْتٍ أَوْ رَأَى مِنِّي أَيْسَرَ حَرَكَةٍ».

قَالَ الْفَارِسُ: «هَذِهِ مَعْلُومَاتٌ طَرِيفَةٌ^{١١} يَا عَزِيزِي. سَأَنْتَفِعُ بِهَا كُلَّ الْإِنْتِفَاعِ. وَأَشْكُرُكَ عَلَى مَا قُلْتَ. وَلَا أَكْتُمُ عَنْكَ إِعْجَابِي بِدِقَّةِ مُلَاحَظَتِكَ، وَحُسْنِ انْتِبَاهِكَ ... وَلَعَلَّ الْفُرَصَ تَسْنَحُ^{١٢} لَكَ، فَتَرْكَبَ هَذَا الْجَوَادَ.. وَحِينَئِذٍ: تَتَحَقَّقُ أُمْنِيَّتُكَ فِي الصُّعُودِ نَحْوَ الْقَمَرِ.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ أُمْنِيَّتِي وَأُمْنِيَّتُكَ مُتَّحِدَتَيْنِ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَظْفَرَ بِهِذَا الْجَوَادَ، كَمَا تَرْجُو أَنْتَ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ، وَسَوْفَ نَتَّعَاوُنُ مَعًا عَلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ ... وَثِقْ أَنْ فِي التَّعَاوُنِ تَحْقِيقُ الْأَمَالِ. أَكْرُرُ لَكَ شُكْرِي، وَإِلَى اللَّقَاءِ ...»

٧

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَخَذَ الْفَارِسُ يَذْهَبُ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ» فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَيَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

^{١١} طريفة: مستحدثة جديدة.

^{١٢} تسنح: تيسر.

وَقَدْ عَرَفَ الْفَارِسُ مِنْ زِيَارَاتِهِ الْمُتَكَرِّرَةِ لِهَذِهِ الْأَرْضِ أَنَّ الْجُهْدَ الصَّادِقَ، وَالْعَزِيمَةَ الدَّائِبَةَ^{١٣} تُحَوِّلُ الصَّحْرَاءَ الْفَاحِلَةَ إِلَى أَرْضِ خَضْرَاءٍ تُنْبِتُ النَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ، وَالزَّيْتُونَ وَالزَّرْمَانَ ... وَكَانَ كُلَّمَا نَظَرَ إِلَى الْفَلَاحِ الْعَجُوزِ — وَهُوَ يَعْمَلُ فِي مَزْرَعَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا — أَخَذَ عَنْهُ دُرُوسًا وَعِبْرَةٌ، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ وَالْكَفَاحِ. حَتَّى يَظْفَرَ الْإِنْسَانُ بِمَا يُرِيدُ مِنْ أَمَالٍ.

وَكَانَ الْفَارِسُ يَقْضِي أَكْثَرَ يَوْمِهِ رَافِعًا عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ تَارَةً، وَنَاطِرًا إِلَى الْمَاءِ فِي «عَيْنِ الدُّمُوعِ» تَارَةً أُخْرَى، رَجَاءً أَنْ يَرَى الْجَوَادَ طَائِرًا فِي الْجَوِّ، أَوْ يَرَى صُورَتَهُ فِي الْمَاءِ. ظَلَّ الْفَارِسُ مُوَاطِبًا عَلَى ذَلِكَ، لَا يَفْتَرُّ وَلَا يَمَلُّ؛ حَتَّى تَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْهُ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: عَجَبًا لِهَذَا الْفَارِسِ! إِنَّهُ يَجْرِي وَرَاءَ الْمَحَالِّ! كَيْفَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الظَّفْرِ بِالْجَوَادِ الطَّيَّارِ؟ إِنَّ هَذَا لَنْ يَتَحَقَّقَ، حَتَّى فِي الْأَحْلَامِ.

كَانَ الْفَارِسُ الْبَطْلَ يَسْمَعُ كُلَّ ذَلِكَ، وَيَسْمَعُ أَكْثَرَ مِنْهُ، فَلَا يَزِيدُهُ هَذَا إِلَّا إِيمَانًا بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُحَقِّقُ رَجَاءَهُ، وَيُبَيِّلُهُ مَا يَبْتَغِي.

كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الصَّبْرَ مَحْمُودٌ الْعَاقِبَةِ، وَلَنْ يَخِيبَ أَمَلُ الْعَامِلِينَ، وَمَا دَامَ هُوَ يَذْأَبُ^{١٤} وَيَصْبِرُ، فَهُوَ مُطْمَئِنٌّ كُلَّ الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى الْعَاقِبَةِ، وَأَنَّهَا سَتَكُونُ سَارَةً حَسَنَةً. وَكَمْ مِنْ مَتَاعِبٍ ذُلَّتْ، وَمَصَاعِبٍ قُضِيَ عَلَيْهَا بِالْعَزِيمَةِ الْمُثَابِرَةِ، وَالْإِرَادَةِ الْمُصَابِرَةِ ...

أُسْئَلَةُ عَلَى الْفَصْلِ الْأَوَّلِ

- (١س) ماذا تعرف عن عين الدموع؟ ولم سميت بهذا الاسم؟
- (٢س) كان لفرقة الأسود مبدأً وأهداف. اذكر بعض أعمالها في الحرب.
- (٣س) صف: اللجام السحري — الجواد المجنح.
- (٤س) كيف يهبط الجواد المجنح على الأرض؟
- (٥س) ماذا أفاد الفارس من رؤيته عمل الفلاح؟

^{١٣} العزيمة الدائبة: العزيمة المستمرة.

^{١٤} يذأب: يجد ويتعب.

الفصل الثاني

نشأة الفارس

١

كَانَ هَذَا الْفَارِسُ مِنْ عَامَّةِ الشَّعْبِ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُوهُ مِنَ الْأَعْنِيَاءِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَوَسِّطَ الْحَالِ ... وَقَدْ رَبَّاهُ تَرْبِيَةً حَسَنَةً، فَنَشَأَ عَلَى حُبِّ التَّضَحِّيَةِ، وَالتَّفَانِي فِي آدَاءِ الْوَاجِبِ؛ حَتَّى اسْتَهْرَ بِشَجَاعَتِهِ، بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ مَأْرَبٍ^١ إِلَّا أَنْ يُقَدِّمَ صَنِيعًا^٢ يُقَدِّرُهُ جَمِيعُ النَّاسِ. وَكَانَ طَرِيقُ الشُّهْرَةِ لِلشَّبَابِ — فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ — أَنْ يَخُوضُوا غِمَارَ الْمَعَارِكِ^٣ ضِدَّ أَعْدَاءِ الْوَطَنِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، رَأَى الْفَارِسُ عِنْدَ أَبِيهِ لَجَامًا جَمِيلًا يَحْتَفِظُ بِهِ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ. سَأَلَ الْفَارِسُ وَالِدَهُ عَنْ هَذَا اللَّجَامِ.

فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: «هَذَا يَا بُنَيَّ، لَجَامٌ مَسْحُورٌ، وَرِثْتُهُ عَنْ جَدِّكَ. وَسَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاتِكَ، وَحَيَاةِ أُمَّتِكَ ... وَسَيَكُونُ وَسِيلَةً تُنْقِذُ بِهَا الشَّعْبَ مِنْ عَدُوٍّ لَدُوْرٍ^٤. هَا هُوَ ذَا اللَّجَامُ أَتْرُكُهُ وَدِيعَةً^٥ عِنْدَكَ. فَاحْتَفِظْ بِهِ، حَتَّى يَجِيءَ الْوَقْتُ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ.»

^١ مأرب: حاجة

^٢ صنيعاً: فضلاً ومعروفاً.

^٣ يخوض غمار المعارك: يقاتل.

^٤ لدود: شديد الخصومة.

^٥ ودِيعَة: أمانة.

وَذَاتَ يَوْمٍ: ظَهَرَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْطِنِهِ تَنْيُنٌ كَبِيرٌ^٦، فَرَزَ النَّاسُ مِنْهُ. كَانَ تُعْبَانًا هَائِلَ الْجِسْمِ، لَمْ يَرْ لَهُ أَحَدٌ شَبِيهَا فِي طُولِهِ وَضَخَامَتِهِ، وَشِدَّةِ بَاسِهِ وَقُوَّتِهِ. كَانَ فَمُهُ يَرْمِي بِاللَّهَبِ، وَيَقْدِفُ بِسُمِّهِ كُلَّ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ: فَكَمْ أَحْرَقَ مِنْ زَرْعٍ، وَقَتَلَ مِنْ أَشْخَاصٍ، وَعَطَّلَ مِنْ أَعْمَالٍ، وَامْتَصَّ مِنْ دِمَاءٍ، وَأَهْلَكَ مِنْ حَيَوَانٍ! لَقَدْ كَانَ كَالْكَابُوسِ الْمُخِيفِ عَلَى صَدْرِ هَذَا الشَّعْبِ الْوَادِعِ الْأَمِينِ، وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ الْأَهْلُونَ اسْمًا: «الْأَصْلَةَ» لِبِشَاعَتِهِ، وَكِبَرِ حَجْمِهِ وَقُوَّتِهِ.

كَانَ هَذَا التَّنْيُنُ غَرِيبَ الشَّكْلِ، لَا يُشْبِهُ أَيَّ تُعْبَانٍ مِنْ تُعَابِينِ الْأَرْضِ. كَانَ لَهُ ذَنْبٌ تُعْبَانٍ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ رُءُوسٍ ضَخْمَةٍ. كُلُّ رَأْسٍ مِنْهَا يَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِ. الرَّأْسُ الْأَوَّلُ: رَأْسُ أَسَدٍ. وَالرَّأْسُ الثَّانِي: رَأْسُ مَاعِزَةٍ. أَمَّا الرَّأْسُ الثَّلَاثُ، فَكَانَ رَأْسُ تُعْبَانٍ. وَكَانَ فِي كُلِّ رَأْسٍ مِنْ هَذِهِ الرُّءُوسِ الثَّلَاثَةِ فَمٌ وَأَنْفٌ وَعَيْنَانِ، وَفِي كُلِّ فَمٍ أَنْيَابٌ حَادَّةٌ. وَمِنْ كُلِّ أَنْفٍ يَخْرُجُ دُخَانٌ كَثِيفٌ^٧ حَارٌّ، وَنَارٌ حَامِيَةٌ. أَمَّا الْعُيُونُ فَقَدْ كَانَتْ لَامِعَةً وَاسِعَةً حُمْرَاءَ، وَكَانَتْ جَمَرَاتٍ مُتَقَدَّةً ... وَكَانَ هَذَا التَّنْيُنُ إِذَا هَاجَ، وَقَفَ عَلَى ذَنْبِهِ، وَدَارَ كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، وَأَخَذَ يَقْدِفُ بِالسُّمِّ وَاللَّهَبِ وَالْدُّخَانِ إِلَى مَدَى بَعِيدٍ.

فَرَزَ الْأَهْلُونَ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ خَسَائِرَ فَادِحَةٍ^٨. وَكَانُوا يُسَمُّونَ بَطَلَ قِصَّتِنَا: «فَارِسَ الْفَوَارِسِ». وَشَعَرَ الْجَمِيعُ أَنَّهُ لَنْ يُخَلِّصَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ بُؤْسٍ وَعَذَابٍ إِلَّا هَذَا الْبَطْلُ الَّذِي يُحْسِنُ إِحْسَاسَ الشَّعْبِ، وَيَتَأَلَّمُ لِمَا يُصِيبُ أُمَّتَهُ مِنَ الْآلَمِ ...

^٦ تنين كبير: شعبان هائل.

^٧ دخان كثيف: دخان متراكم بعضه فوق بعض.

^٨ فادحة: عظيمة.

وَوَجَدَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» أَنَّ عَلَيْهِ وَاجِبًا لَا بُدَّ أَنْ يُؤَدِّيَهُ، فَهَهَا هُوَ ذَا الشَّعْبُ قَدْ وَضَعَ آمَالَهُ فِيهِ.

وَهَذَا هُمْ أَوْلَاءِ النَّاسِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا فِدَائِيٌّ فِي مِثْلِ بُطُولَةِ «فَارِسِ الْفَوَارِسِ»، وَأَنَّهُ — وَحْدَهُ — قَادِرٌ عَلَى مُنَازَلَةِ هَذَا الْعَدُوِّ اللَّدُودِ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ، وَإِنْقَازِ الْأَهْلِينَ مِنْ مَصَائِبِهِ. وَعَزَمَ عَزْمًا أَكِيدًا عَلَى قَتْلِ «الْأَصْلَةِ»، وَلَوْ كَلَّفَهُ ذَلِكَ فِقْدَانَ حَيَاتِهِ. وَأَخَذَ يَرْسُمُ الْخُطَّةَ الَّتِي تَكْفُلُ لَهُ النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ ... فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى «الْأَصْلَةِ»؛ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْحِيلَةِ، وَإِعْدَادِ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ. فَمَاذَا يَفْعَلُ هَذَا الْبَطْلُ؟ تَذَكَّرَ «الْجَوَادَ الْمُجَنِّحَ»؛ فَقَدْ كَانَ النَّاسُ كَثِيرًا مَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ، وَيَصِفُونَهُ بِالْقُوَّةِ الْهَائِلَةِ. وَلَكِنْ: كَيْفَ يَحْصُلُ عَلَى هَذَا الْجَوَادِ؟ وَهَذَا تَذَكُّرُ اللَّجَامِ الْمُسْحُورِ. لَقَدْ آتَى^٩ الْأَوَّانَ لِلْإِسْتِفَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْوَدِيعَةِ النَّفِيسَةِ ... إِنَّ هَذَا اللَّجَامَ هُوَ مُفْتَاخُ نَجَاحِهِ فِي مُغَامَرَتِهِ الشَّاقَّةِ. كَانَ هَذَا اللَّجَامُ مُحَلَّى بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَكَانَ شَدِيدَ التَّأْثِيرِ فِي الْإِفْرَاسِ، فَلَمْ يَلْجَأْ بِهِ فَرَسٌ — مَهْمَا يَكُنْ جَامِحًا — إِلَّا خَضَعَ وَهَدَأَ، وَأَصْبَحَ سَلِسَ الْقِيَادِ.^{١٠}

٤

وَحِينَ تَأَكَّدُ الْبَطْلُ أَنَّ الْفُرْصَ كُلَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِتَحْقِيقِ آمَالِهِ، وَإِنْقَازِ أُمَّتِهِ، أَسْرَعَ بِالسَّفَرِ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ» ... وَوَصَلَ — فِي سَيْرِهِ — اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ أَيَّامًا وَأَسَابِيعَ، حَتَّى بَلَغَ هَذِهِ الْعَيْنَ ... حَيْثُ قَابَلَ الْفَلَاحَ الْعَجُوزَ، وَالصَّبِيَّ الذَّكِيَّ، وَسَمِعَ مِنْهُمَا تِلْكَ الْأُسْطُورَةَ الَّتِي حَدَّثَتْكَ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ. وَلَازَمَهُ الصَّبِيُّ الشُّجَاعُ زَمَنًا طَوِيلًا، فَقَوِيَ أَمْلُهُ فِي أَنْ يَعُودَ — إِلَى بِلَادِهِ — بِالنَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ.

^٩ آتَى: حَانَ.

^{١٠} سَلِسَ: سَهَلَ لِي.

أُسْئَلَةُ الْفَصْلِ الثَّانِي

- (س١) ماذا كان يرجو الناس من «فارس الفوارس»؟
(س٢) إذا هاج التنين: فماذا كان يعمل؟
(س٣) لم سافر الفارس لعين الدموع؟
(س٤) صف اللجام المسحور.
(س٥) كيف وصل اللجام لأبي الفوارس؟

الفصل الثالث

الْفَرَجُ بَعْدَ الصَّبْرِ

١

طَالَ انْتِظَارُ الْفِدَائِيِّ لِلْجَوَادِ الطَّيَّارِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَبْأَسْ. وَقَدْ كَانَ يُفَكِّرُ فِي قَوْمِهِ جِنَمًا كَانَ بَعِيدًا عَنْ وَطَنِهِ ... ثُمَّ يَتَصَوَّرُ الْخَسَارَةَ الْكُبْرَى الَّتِي تُصِيبُهُمْ مِنْ «الْأَصْلَةِ»، وَيَذْكُرُ أَنَّهُمْ وَضَعُوا فِيهِ آمَالَهُمْ.

كَانَ يَخْطُرُ لَهُ — أحيانًا — أَنْ يَعودَ إِلَى بِلَادِهِ لِيُقَاتِلَ «الْأَصْلَةَ» مِنْ غَيْرِ الْجَوَادِ الْمُجَنِّحِ؛ فِيمَا كُتِبَ لَهُ النِّجَاحُ وَالْفَوْزُ، وَإِمَّا لِقَى الْهَلَكَ! وَلَكِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّهَا مُحَاطَرَةٌ لَا تُفِيدُ.

وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ، نَبَّهَهُ الطُّفْلُ الذَّكِيُّ إِلَى صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ فِي الْمَاءِ. نَظَرَ الْفَارِسُ إِلَى الْمَاءِ، فَرَأَى صُورَةً عَجِيبَةً، أَشَبَّهَ بِطَائِرٍ كَبِيرٍ، يَظْهَرُ عَلَى ارْتِفَاعٍ شَاهِقٍ فِي الْهَوَاءِ. كَانَتْ أَشْعَةُ الشَّمْسِ تَنعَكِسُ عَلَى جَنَاحَيْهِ الْفَضِيِّينَ، فَيَشِعُّ مِنْهُمَا بَرِيقٌ شَدِيدٌ. قَالَ الصَّبِيُّ بِصَوْتٍ خَافَتْ: «أَبْشُرْ أَيُّهَا الْبَطْلُ، فَإِنَّ الصُّورَةَ الَّتِي تَرَاهَا الْآنَ لَيْسَتْ إِلَّا صُورَةُ الْجَوَادِ الْمُجَنِّحِ، الَّذِي جِئْتَ مِنْ أَجْلِهِ، وَذُقْتَ الْمُرَّ فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ.» قَالَ الْبَطْلُ: «لَقَدْ عَوَّضَ اللَّهُ صَبْرِي خَيْرًا، وَأَرْجُو أَنْ يُوفِّقَنِي إِلَى الْفَوْزِ بِهَذَا الْجَوَادِ؛ حَتَّى أَعُودَ إِلَى بِلَادِي، وَأُنْقِذَ قَوْمِي، وَ...»



وَهُنَا قَطَعَ الْفَارِسُ حَدِيثَهُ؛ فَقَدْ رَأَى مَنْظَرَ الْجَوَادِ الرَّائِعِ، فَدِهَشَ. لَقَدْ كَانَ الْجَوَادُ
يُحَلِّقُ^١ فِي الْفَضَاءِ، وَيَرْسُمُ فِي طَيْرَانِهِ دَوَائِرَ وَاسِعَةً جِدًّا، تَأْخُذُ فِي الضِّيقِ شَيْئًا فَشَيْئًا،
كُلَّمَا اقْتَرَبَ الْجَوَادُ مِنَ الْأَرْضِ ...

^١ يحلق: يطير في حلقات.

أَدْرَكَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» أَنَّ هَذِهِ فُرْصَةٌ ذَهَبِيَّةٌ، يَجِبُ أَلَّا يَتْرُكَهَا تَمَرُّ، مَهْمَا بَدَلَ فِي سَبِيلِهَا مِنْ كَدٍّ وَمَجْهُودٍ ... وَهَذَا هُوَ ذَا الْجَوَادِّ يَقْتَرِبُ قَلِيلًا قَلِيلًا مِنَ الْأَرْضِ، كَمَا تَفْعَلُ الْحَمَائِمُ، حِينَ تَهْمُ بِالنُّزُولِ عَلَى مَوْضِعِ الْحَبِّ.

وَلَمْ تَمْضِ ثَوَانٍ، حَتَّى طَوَى الْجَوَادُّ جَنَاحَيْهِ الْفُضِيَّيْنِ، وَأَخَذَ يَجْرِي مُسْرِعًا نَحْوَ «عَيْنِ الدُّمُوعِ»، وَشَرِبَ الْجَوَادُّ مِنَ الْعَيْنِ، حَتَّى ارْتَوَى. وَأَكَلَ مَا حَلَا لَهُ مِنَ الْأَعْشَابِ الْخَضِرِ حَتَّى شَبِعَ. ثُمَّ انْطَلَقَ يَجْرِي وَيَقْفِزُ عَلَى الْأَرْضِ فِي خَفَةٍ وَنَشَاطٍ.

وَاسْتَعَدَّ الْفَارِسُ، فَاخْتَفَى عَنْ عَيْنِي الْجَوَادِّ. أَخَذَ يَتَرَقَّبُ فُرْصَةً يُحَقِّقُ فِيهَا غَرَضَهُ النَّبِيلَ. وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ، حَتَّى رَقَدَ الْجَوَادُّ عَلَى الْعُشْبِ الْأَخْضَرِ، وَأَخَذَ يَتَقَلَّبُ عَلَى ظَهْرِهِ تَارَةً، وَعَلَى جَنْبِهِ تَارَةً، حَتَّى انْتَهَى مِنْ رِيَاضَتِهِ الْحَبِيبَةِ.

ثُمَّ مَدَّ الْجَوَادُّ يَدَيْهِ، وَحَرَكَ جَنَاحَيْهِ، وَاسْتَعَدَّ لِلْوُقُوفِ، أَمْسَكَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» بِبَدِ الطِّفْلِ، وَقَدْ سَحَرَهُ هَذَا الْمَنْظَرُ الْبَدِيعُ. وَنَظَرَ الْفَارِسُ وَالصَّبِيُّ إِلَى الْجَوَادِّ مَدْهُوشَيْنِ ... فَلَمْ يَدْرِيا — مِنْ كَثَرَةِ الدَّهْشَةِ — أَفِي يَقْظَةٍ هُمَا أَمْ فِي مَنَامٍ؟! هَذَا هُوَ ذَا الْجَوَادِّ يَتَأَهَّبُ^٢ لِلْقِيَامِ!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ جَمَعَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ وَشَجَاعَةٍ، وَانْطَلَقَ إِلَى الْجَوَادِّ فِي هُجُومٍ خَاطِفٍ. وَفِي حَرَكَةٍ بَارِعَةٍ، قَفَزَ عَلَى ظَهْرِهِ قَفْزَةً جَرِيئَةً!

تَمَكَّنَ الْفَارِسُ مِنَ الْجَوَادِّ، وَاسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِهِ.

وَلَكِنَّ الْجَوَادَّ غَضِبَ وَاعْتَاطَ حِينَ شَعَرَ بِرَاكِبِهِ، وَاشْتَدَّ غَيْظُهُ وَهَاجَ ... وَسَرَتْ الرُّعْشَةُ فِي جَسَدِهِ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ؛ فَفَقَرَ بِالْفَارِسِ قَفَزَاتٍ عَنِيفَةً، وَحَاوَلَ أَنْ يَقْدِفَ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ ... وَلَكِنْ لَمْ تَنْفَعْ هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتُ!

^٢ يتأهب: يستعد.



فَارْتَفَعَ الْجَوَادُ بِالْفَارِسِ، وَطَارَ بِهِ فِي الْجَوِّ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَحَابَةٍ غَلِيظَةٍ، ثُمَّ هَبَطَ بِهِ فَجَاءَ فِي سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ كَلَمَحِ الْبَصَرِ ... ثُمَّ قَفَزَ الْجَوَادُ بِالْفَارِسِ مَرَّةً أُخْرَى، وَارْتَفَعَ بِهِ مُحَلِّقًا فِي أَعَالِي الْجَوِّ، ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَقْذِفَ بِهِ مِنْ هَذَا الْعُلُوِّ الشَّاهِقِ. وَلَكِنَّ مُحَاوَلَاتِ الْجَوَادِ ذَهَبَتْ سُدىً،^٣ وَلَمْ يُصِبِ الْفَارِسُ بِسُوءٍ ... وَأَخِيرًا قَلَبَ الْجَوَادُ جِسْمَهُ فَجَاءَ، فَصَارَ ظَهْرُهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَصَارَتْ قَدَمَاهُ وَبَطْنُهُ إِلَى السَّمَاءِ. وَأَصْبَحَ الْفَارِسُ مُعْرَضًا لِلْهَلَاكِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَكَادَ يَسْقُطُ مِنْ هَذَا الِارْتِفَاعِ الْعَظِيمِ.

^٣ ذهب سدى: ذهب بدون فائدة.

وَلَكِنَّ الْفَارِسَ كَانَ حَذِرًا، فَلَمْ يُصَبِّ بِسُوءٍ.
لَوَى الْجَوَادُ رَقَبَتَهُ لِيَرَى وَجْهَ رَاكِبِهِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَعْضَهُ ...
وَنَظَرَ الْفَارِسُ إِلَيْهِ؛ فَرَأَى الْعَظِظَ عَلَى وَجْهِ الْجَوَادِ: عَيْنَاهُ تَقْدَحَانِ بِالشَّرِّ،^٤ وَتَقْدِفَانِ
بِاللَّهَبِ، وَكَانَ يَزْفِرُ زَفِيرًا مُخِيفًا ...

٤

كَانَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» شَجَاعًا، ذَكِيًّا، يَعْمَلُ حِسَابًا لِكُلِّ طَارِيءٍ، وَيَعُدُّ الْعُدَّةَ لِكُلِّ احْتِمَالٍ،
فِي سُرْعَةٍ وَحُسْنٍ تَصَرُّفٍ ... كَمَا كَانَ وَإِعْيًا لَا تَقْلُتُ مِنْهُ فُرْصَةً.
فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ كَانَ الْفَارِسُ يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ الَّتِي يَسْتَطِيعُ فِيهَا أَنْ يَضَعَ حَدِيدَةَ
اللِّجَامِ السَّحْرِيِّ بَيْنَ فَكِّي الْجَوَادِ. وَقَدْ حَانَتِ الْفُرْصَةُ لِلْفَارِسِ عِنْدَمَا قَلَبَ الْجَوَادُ جِسْمَهُ،
وَلَوَى رَقَبَتَهُ: فَعِنْدَ ذَلِكَ أَسْرَعَ الْفَارِسُ إِلَى الْجَوَادِ الْمُجَنِّحِ، فَوَضَعَ بَيْنَ فَكِّيهِ الشَّكِيمَةَ.^٥
وَأَلْجَمَهُ بِاللِّجَامِ.
حِينَذَاكَ خَضَعَ الْجَوَادُ، بَعْدَ هَيَاجٍ، وَأَصْبَحَ — فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ — أَلِيفًا أُنَيْسًا، سَاكِنًا
هَادِيًا.

مَا أَعْجَبَ هَذَا الَّذِي حَدَثَ! اعْتَدَلَ الْجَوَادُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَقْلُوبًا، وَهَبَطَ بِالْفَارِسِ إِلَى
الْأَرْضِ بِرَفْقٍ وَهْدُوءٍ، وَتَبَدَّلَ حَالُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَعُنفٍ إِلَى خُضُوعٍ وَضَعْفٍ ... وَنَظَرَ إِلَى
الْفَارِسِ فِي تَذَلُّلٍ وَخُشُوعٍ، وَعَيْنَاهُ مُبَلَّلَتَانِ بِالْذُّمُوعِ.
فَابْتَسَمَ الْفَارِسُ لِلْجَوَادِ، وَأَخَذَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَلَاطِفُهُ، وَيُطَمِّنُّهُ، وَيَتَحَسَّسُ
جِسْمَهُ بِيَدِهِ فِي عَطْفٍ وَحَنَانٍ. ثُمَّ هَمَسَ فِي أُذُنِهِ فِي رَفْقٍ وَتَوَدُّدٍ، مُؤَكِّدًا لَهُ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُ بِهِ
شَرًّا، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ عَوْنَهُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى الشَّرِّ، وَتَخْلِيصِ قَوْمِهِ مِنَ الْأَلَامِ ...

^٤ تقدحان بالشر: يخرج منهما الشر.

^٥ الشكيمة: الحديدية المعارضة في فم الفرس.

ثُمَّ رَبَّتْ^٦ بِيَدِهِ عَلَى رَقَبَةِ الْجَوَادِ، وَمَرَّ بِهَا عَلَى ظَهْرِهِ ... وَمَا زَالَ يَمَسُّهُ^٧ وَيَلَايْنُهُ، وَيَتَلَطَّفُ لَهُ فِي الْقَوْلِ، حَتَّى اطْمَأَنَّ الْجَوَادُ إِلَى الْفَارِسِ كُلِّ الْإِطْمِئْنَانِ ... وَأَصْبَحَ كُلُّ مَنَّهُمَا لِلْآخِرِ رَفِيقًا وَمُؤْنَسًا، وَزَالَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ نُفُورٍ وَخِصَامٍ.

٥

هَكَذَا تَبَدَّلَتْ حَالُ الْجَوَادِ، فَأَصْبَحَ أَوْفَى صَدِيقٍ لِصَاحِبِهِ: «فَارِسِ الْفَوَارِسِ». أَصْبَحَ لَا يُطِيقُ فِرَاقَهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ — مُنْذُ وَقْتٍ قَصِيرٍ — لَا يُطِيقُ رُؤْيَتَهُ ... رَكِبَ الْفَارِسُ الْجَوَادَ، فَطَارَ بِهِ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ الْعَالِي، وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ نَزُولَ صَاحِبِهِ ... فَهَمَّ الْفَارِسُ مَا يُرِيدُ الْجَوَادَ، فَاسْرَعَ بِالنُّزُولِ عَنْ ظَهْرِهِ ... وَكَانَ لَا يَزَالُ مُمْسِكًا بِاللِّجَامِ الْمَسْحُورِ.

نَظَرَ الْفَارِسُ إِلَى عَيْنَيِ الْجَوَادِ، فَرَأَى فِيهِمَا أَمَارَاتِ الْوَفَاءِ، فَأَخَذَ يَرَبِّتُ عَلَى ظَهْرِهِ مُتَوَدِّدًا، وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الرَّفِيقُ النَّبِيلُ، أَنَا لَا أُجْبِرُكَ عَلَى صُحْبَتِي. لَنْ أَسْمَحَ لِنَفْسِي أَنْ أُصَادِقَكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْكَ. لَا تَظُنَّنِي يَا رَفِيقِي أَنِّي أَقِيدُ حُرِّيَّتَكَ، فَلَا مَعْنَى لِلصُّحْبَةِ إِذَا كَانَ الصَّدِيقُ يُسِيءُ فِيهَا إِلَى الصَّدِيقِ!»

ثُمَّ مَسَحَ عَلَى جِسْمِ الْحِصَانِ، وَاسْتَمَرَ يَقُولُ: «هَلْ يُضَايِقُكَ هَذَا اللَّجَامُ السَّحَرِيُّ، يَا رَفِيقِي؟ هَلْ تَخْضَعُ لِي، لِأَنَّ هَذَا اللَّجَامَ بِفَمِكَ؟ وَهَلْ أَصْبَحْتَ صَدِيقًا لِي خَوْفًا مِنَ اللَّجَامِ؟ لَا! لَا! أَنَا أَوَدُّ أَنْ تَكُونَ الصَّدَاقَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَدَاقَةً حَقِيقَةً. لَا صَدَاقَةَ تَجْنِي عَلَى حُرِّيَّتِكَ. هَانَذَا أَنْزَعُ اللَّجَامَ مِنْ فَمِكَ! هَانَذَا أُطْلِقُ سَرَاحَكَ! فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ، أَيُّهَا الْجَوَادُ الْوَفِيُّ النَّبِيلُ!»

وَرَفَعَ الْفَارِسُ اللَّجَامَ الْمَسْحُورَ، وَقَالَ لِلْجَوَادِ: «اخْتَرْ مَا تَشَاءُ: لَكَ أَنْ تَلَازِمَنِي طُولَ الْحَيَاةِ أَوْ تَتْرُكَنِي أَبَدًا فَلَا تَعُودُ.»

^٦ ربت بيده: كمر وضع يده برفق.

^٧ يمسحه: يمسح بيده على رقبته.

الْفَرَجُ بَعْدَ الصَّيْرِ

صَارَ الْجَوَادُ حُرًّا بَعْدَ أَنْ رُفِعَ مِنْ فَمِهِ اللَّجَامُ؛ فَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ، وَانْطَلَقَ مِنْ قَوْرِهِ،
وَوَطَّارَ فِي أَجْوَاзِ الْفَضَاءِ ... وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ غَابَ عَنْ عَيْنِ الْفَارِسِ الشَّجَاعِ ...



خَشِيَ الْفَارِسُ أَلَّا يَعُودَ الْجَوَادُ الطَّيَّارُ ... وَكَادَ يَنْدُمُ عَلَى الْفُرْصَةِ الَّتِي أَضَاعَهَا بِيَدِهِ،
وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: «إِنَّ الْجَوَادَ — كَمَا بَدَأَ لِي — كَرِيمٌ أَصِيلٌ، وَهُوَ مُخْلِصٌ فِي
صِدَاقَتِهِ وَفِيَّ، كَمَا ظَهَرَ لِي. وَمَعَ كُلِّ لَوْ فَرَضْنَا أَنِّي لَمْ أُطْلِقْ سَرَّاحَهُ، فَهَلْ كَانَتْ تَنْفَعُنِي

صُحْبَتُهُ وَهُوَ مَسْلُوبُ الْحُرِّيَّةِ؟ لَوْ عَادَ إِلَيَّ الْآنَ — كَمَا أَرْجُو أَنْ يَعُودَ — فَإِنَّمَا يَعُودُ بِحُرِّيَّتِهِ، وَمَحْضٍ^٨ اخْتِيَارِهِ.»

وَمَضَتْ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ، وَلَمْ يَعِدِ الْجَوَادُ. وَبَدَأَ الْفَارِسُ يَنْدَمُ عَلَى تَسْرُعِهِ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ. عَجَبًا! مَاذَا حَدَثَ؟ هَا هُوَ ذَا الْجَوَادُ يُسَابِقُ الرِّيحَ فِي طَيْرَانِهِ! هَا هُوَ ذَا يَعُودُ إِلَى الْفَارِسِ، وَيَقْبَلُ عَلَيْهِ! هَا هُوَ ذَا يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَقْتَرِبُ مِنْ رَفِيقِهِ عَنْ طَوَاعِيَةٍ وَاخْتِيَارٍ. حَقًّا: إِنَّهُ جَوَادٌ أَصِيلٌ، لَا يُخْلِفُ الْعَهْدَ وَلَا يَخُونُ.

عَادَتِ الطُّمَأْنِينَةُ إِلَى قَلْبِ «فَارِسِ الْفَوَارِسِ»، وَآيَقَنَ أَنَّ نَظَرَتَهُ إِلَى الْجَوَادِ لَمْ تَخِبْ، وَفَرَّاسَتُهُ فِيهِ كَانَتْ صَادِقَةً. فَأَخَذَ يَمْسَحُ عَلَى جَسَدِهِ فِي رَفَقٍ، وَالْجَوَادُ إِلَى جَوَارِهِ هَادِيٌّ أَلَيْفٌ ...

وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ، وَنَامَ الصَّدِيقَانِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، وَلَفَّ الْفَارِسُ ذِرَاعَهُ حَوْلَ رَقَبَةِ الْجَوَادِ ... وَلَمْ يَعِدْ أَحَدُهُمَا يُطِيقُ فِرَاقَ صَاحِبِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَصَارَ كُلُّ مِنْهُمَا سَعِيدًا بِصُحْبَتِهِ لِلْآخِرِ، مُخْلِصًا لَهُ كُلَّ الْإِخْلَاصِ.

أَسْئَلَةُ الْفَصْلِ الثَّالِثِ

- (س١) أين رأى الفارس صورة الجواد المجنح مع الصبي؟
- (س٢) كيف ركب فارس الفوارس الجواد؟
- (س٣) كم مرة حاول الجواد أن يسقط الفارس من على ظهره؟
- (س٤) متى تمكن الفارس من وضع الشكيمة بين فكي الجواد؟
- (س٥) لم أطلق الفارس الجواد، ونزع لجامه السحري؟
- (س٦) هل عاد الجواد بعد إطلاقه؟ ولم؟

^٨ محض: خالص.

الفصل الرابع

الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ

١

كَمْ كَانَ بُودُ الْفَارِسِ أَنْ يَبْقَى مَعَ الْجَوَادِ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ سَعِيدًا بِتِلْكَ الْحَيَاةِ الْهَانِيَّةِ! وَلَكِنَّ الْفَارِسَ كَانَ دَائِمًا التَّفَكِيرِ فِي وَطَنِهِ. وَكُلَّمَا تَصَوَّرَ التَّنِينَ، وَمَا يُحْدِثُهُ مِنَ التَّخْرِيبِ وَالتَّدْمِيرِ، وَدَّ أَنْ يَقْطَعَ ذَابِرَهُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؛ فَيُرِيحَ الْأَهْلِينَ مِنْ أَذَاهُ ...

كَانَ عَلَيْهِ إِذَنْ أَنْ يَرْحَلَ إِلَى وَطَنِهِ، لِيَحَقِّقَ الْوَعْدَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلِيُرْضِيَ ضَمِيرَهُ وَيُسَعِدَ قَوْمَهُ. وَقَرَّرَ أَنْ يُفَاجِئَ «الْأَصْلَةَ» فِي غَدِهِ. هَكَذَا بَاتَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» يَحْلُمُ سَوَادَ لَيْلِهِ بِتَحْقِيقِ غَايَتِهِ؛ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، نَهَضَ مُمْتَلِئًا شَجَاعَةً وَعَزْمًا.

٢

مَسَحَ الْفَارِسُ بِيَدِهِ الشَّفِيقَةِ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ، لِيُوقِظَهُ.. ثُمَّ تَنَاوَلَا الْفُطُورَ مَعًا. وَجَلَسَا قَلِيلًا إِلَى الْعَيْنِ، فَشَرَبَا مِنْهَا حَتَّى ارْتَوَيَا. ثُمَّ لَبَسَ الْفَارِسُ مَلَابِسَ الْحَرْبِ، وَاسْتَعَدَّ لِمُقَاتَلَةِ التَّنِينَ.

وَفَهِمَ الْجَوَادُ مَا يُرِيدُ الْفَارِسُ؛ فَمَدَّ رَقَبَتَهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: «ضَعِ اللَّجَامَ الْمَسْحُورَ فِي فَمِي، وَسَأَصْحَبُكَ إِلَى حَيْثُ تُرِيدُ.»

وَضَعَ الْفَارِسُ اللَّجَامَ فِي فَمِ الْجَوَادِ، وَرَبَّتْ عَلَى ظَهْرِهِ وَلَا طَفْعَ. ثُمَّ رَكِبَهُ، وَأَدَارَ رَأْسَهُ جِهَةَ الشَّرْقِ. وَانْدَفَعَ الْجَوَادُ بِالْفَارِسِ يُسَابِقُ الرِّيحَ فِي طَيْرَانِهِ. وَلَمْ تَمُضْ إِلَّا سَاعَاتُ

ثَلَاثٌ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى وَادِي «الأَصْلَةِ» ... وَهُنَاكَ أَشَارَ إِلَى الْجَوَادِ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ ... فَهَبَطَ
فَوْقَ رَأْسِ الْجَبَلِ الْمُجَاوِرِ لَوَادِي التَّنِّينِ ... وَاخْتَفَى بِصَاحِبِهِ فِي سَحَابَةٍ كَثِيفَةٍ.
كَانَ الْجَوَادُ ذَكِيًّا وَاعِيًّا. لَقَدْ خَافَ أَنْ يَتَنَبَّهَ التَّنِّينُ إِلَى قُدُومِ الْفَارِسِ؛ فَتَفْسَدَ الْخُطَّةُ،
وَتَضِيعَ الْفُرْصَةُ. فَلَوْ عَرَفَ التَّنِّينُ بِمَقْدَمِهِمَا، لَفَتَكَ بِهِمَا.

٣

نَظَرَ الْفَارِسُ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ إِلَى الْوَادِي، فَرَأَى مَا أَحْزَنَهُ وَالْأَمَةُ، وَمَلَأَ نَفْسَهُ غَمًّا وَهَمًّا:
هَذِهِ هِيَ أَرْضُ قَوْمِهِ قَدْ أَصْبَحَتْ جَرْدَاءً، وَهَذِهِ هِيَ آثَارُ التَّنِّينِ: لَهَيْبٌ وَنَارٌ، وَتَخْرِيبٌ
وَدَمَارٌ! وَهَذِهِ عِظَامُ الدَّوَابِّ وَالْمَاشِيَةِ الَّتِي قَتَلَهَا التَّنِّينُ وَحَرَّقَ أَجْسَادَهَا! وَهَذِهِ مَنَازِلُ
قَوْمِهِ قَدْ أَصْبَحَتْ مُهْدَمَةً، وَهَجَرَهَا أَهْلُهَا ...
رَأَى الْفَارِسُ كُلَّ ذَلِكَ، فَعَلَى الدَّمِ فِي عُرْوِقِهِ، وَعَزَمَ عَزْمًا أَكِيدًا عَلَى تَخْلِيصِ وَطْنِهِ مِنَ
الْبَلَاءِ. أَطَالَ الْفَارِسُ التَّفَكُّيرَ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «هَذِهِ آثَارُ التَّنِّينِ؛ وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ؟ وَكَيْفَ
الْقَاءُ؟ وَمَتَى؟»

وَنَظَرَ هُنَا وَهُنَا، فَرَأَى أَعِمْدَةً ثَلَاثَةً مِنَ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ صَاعِدَةً فِي الْجَوِّ، وَأَخَذَتْ
تَصْعَدُ وَتَصْعَدُ، حَتَّى اقْتَرَبَتْ مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ. ثُمَّ تَجَمَّعَتِ الْأَعِمْدَةُ الثَّلَاثَةُ، وَامْتَزَجَتْ —
بَعْضُهَا بِبَعْضٍ — حَتَّى أَصْبَحَتْ عُمُودًا وَاحِدًا مِنَ الدُّخَانِ الشَّدِيدِ السَّوَادِ ...

٤

عَرَفَ الْفَارِسُ أَنَّ الْمَغَارَةَ الَّتِي يَسْكُنُهَا التَّنِّينُ غَيْرُ بَعِيدَةٍ، فَأَشَارَ إِلَى جَوَادِهِ إِشَارَةً، فَهَمَّ
مِنْهَا أَنْ يَهْبِطَ بِهِ الْوَادِي. وَأَخَذَ الْجَوَادُ الذَّكِيُّ يَهْبِطُ، فِي خِفَةٍ وَحَذَرٍ، حَتَّى أَصْبَحَ قَرِيبًا
جِدًّا مِنْ قَاعِ الْوَادِي، حَيْثُ غَارَ «الأَصْلَةُ» ...

نَظَرَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» دَاخِلَ الْمَغَارَةِ، فَرَأَى: وَيَا هَوْلَ مَا رَأَى! رَأَى جِسْمًا ضَخْمًا
فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ الْجَبَلِ، قَدْ التَفَّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ رُءُوسٌ ثَلَاثَةٌ.
الرَّأْسُ الْأَوَّلُ: رَأْسُ ثُعْبَانٍ هَائِلٍ. وَالثَّانِي: رَأْسُ أَسَدٍ كَاشِرٍ قَدْ بَرَزَتْ أُنْيَابُهُ. وَأَمَّا
الرَّأْسُ الثَّلَاثُ: فَرَأْسُ عَنَزٍ شَرِسَةٍ ... مَنْظَرٌ مُرْعِبٌ مُخِيفٌ! لَوْ رَأَاهُ أَحَدٌ غَيْرُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ،
لَفَرَّ هَارِبًا.

لَكِنَّ «فَارِسَ الْفَوَارِسِ» لَا يَعْرِفُ الْفِرَارَ، وَلَا يَعْرِفُ الْخَوْفَ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا. إِنَّهُ مَثَلُ رَائِعٍ
لِلشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ وَالْإِقْدَامِ. لَمْ يَهْرُبْ، وَلَمْ يَخَفْ ... بَلِ ارْزَادًا ثَبَاتًا وَشَجَاعَةً، وَعَزْمًا
وَتَصْمِيمًا.

رَاحَ الْفَارِسُ يُمَعِّنُ النَّظَرَ فِي رُءُوسِ «الْأَصْلَةِ» الثَّلَاثَةِ. رَأَى رَأْسَ الْأَسَدِ وَرَأْسَ الْعَنْزِ
نَائِمَيْنِ. وَكَانَ رَأْسُ الثُّعْبَانِ وَحْدَهُ مُسْتَقِظًا ... وَكَانَ يَتَحَرَّكُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَفِيهِ عَيْنَانِ
مُلْتَهَبَتَانِ، كَأَنَّهُمَا جَمْرَتَانِ.

وَكَانَتْ أَعْمَدَةُ الدُّخَانِ الثَّلَاثَةُ تَتَصَاعَدُ مِنْ أُنُوفِ الرُّءُوسِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعًا. وَكَانَتْ
الرُّءُوسُ الثَّلَاثَةُ تَبْدُو لِمَنْ يَرَاهَا كَأَنَّهَا رُءُوسُ وَحُوشٍ ثَلَاثَةٍ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالٍ مَنْ يَرَاهَا
أَنَّهَا رُءُوسُ تِنِينٍ وَاحِدٍ.

٥

رَأَى الْجَوَادُ الْمُجَبَّحُ هَذَا الْمَنْظَرَ الْمُخِيفَ؛ فَأَجْفَلَ وَصَهَلَ. سَمِعَ «التَّنِينُ» صَهِيلَ الْحِصَانِ،
فَدَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى خَارِجِ الْغَارِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصَرِ، وَمَدَّ فَكَيْهِ لِيَلْتَقِمَ فَرِيستَهُ. وَتَحَرَّكَ «التَّنِينُ»
— بِذِيْلِهِ وَرُءُوسِهِ الثَّلَاثَةِ — حَرَكَاتٍ غَاضِبَةً. كَيْفَ يَجْرُو أَحَدٌ أَنْ يَفْتَحِمَ عَلَيْهِ مَغَارَتَهُ؟!
وَمَنْ هَذَا الَّذِي حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَغْتَدِي عَلَيْهِ؟!

رَأَى «فَارِسَ الْفَوَارِسِ» هَذَا الْمَنْظَرَ الْمُفْرِعَ؛ فَاشْتَدَّ بِأُسُهُ، وَقَوِيَ قَلْبُهُ، وَعَظُمَتْ
شَجَاعَتُهُ، وَالتَّهَبَّتْ حِمَاسَتُهُ ... وَلِمَ لَا، وَالشَّعْبُ قَدْ ذَاقَ الْمُرَّ مِنْ هَوْلِ هَذَا التَّنِينِ؟! لَا
بُدَّ مِنَ الْفَوْزِ. لَا بُدَّ مِنَ الْإِنْتِصَارِ! وَهَمَزَ الْفَارِسُ جَوَادَهُ هَمْزَةً خَفِيفَةً، وَقَالَ: «هَذَا هُوَ
الْمَوْقِفُ الَّذِي أَسْتَعِينُ فِيهِ بِكَ، وَالَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَتَيْتُ بِكَ مِنْ «وَادِي الدُّمُوعِ».

سَاعِدْنِي، أَيُّهَا الْجَوَادُ النَّبِيلُ. عَاوْنِي عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِي الْإِنْسَانِي الْجَلِيلِ! لَقَدْ صَارَ
الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا الْوُحْشِ الْكَاسِرِ، إِمَّا مَوْتُ وَإِمَّا حَيَاةٌ! وَلَا تَنْسَ أَنِّي أَقْسَمْتُ أَنْ أَهْلِكَ
هَذَا التَّنِينِ أَوْ أَمُوتَ!«

^١ همز جواده: شكه بسن.



كَانَ الْجَوَادُ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَقْدِيمِ الْمَعُونَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ.^٢
وَسُرْعَانَ مَا اسْتَجَابَ إِلَى نِدَاءِ الْفَارِسِ الرَّفِيقِ. وَأَنْدَفَعَ الْجَوَادُ الْمَجَنِّحُ الشُّجَاعُ نَحْوَ التَّنِّينِ،
حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى بُعْدِ ذِرَاعٍ مِنْهُ، وَهُنَا انْتَهَرَ الْفَارِسُ الْفُرْصَةَ، فَصَوَّبَ إِلَى عَدُوِّهِ صَرْبَةً مِنْ
سَيْفِهِ أَصَابَتْهُ فِي الصِّمِيمِ.

^٢ العَصِيبُ: الشديد.

وَرَجَعَ الْجَوَادُ بِصَاحِبِهِ إِلَى الْوَرَاءِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ؛ فَقَدْ هَاجَ التَّنِينُ وَمَاجَ، وَثَارَ وَغَضِبَ،
وَأَخَذَ يَزْفِرُ وَيَدْحَنُ، وَتَحَرَّكَ نَحْوَ الْفَارِسِ يُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ. رَأَى الْجَوَادُ ذَلِكَ، فَاَنْتَهَزَ
فُرْصَةً كَرَّ فِيهَا عَلَى التَّنِينِ، لِيُمْكِّنَ صَاحِبَهُ الْفَارِسَ مِنَ التَّغْلِبِ عَلَى هَذَا الْوَحْشِ الْهَائِجِ.
وَنَظَرَ الْفَارِسُ إِلَى التَّنِينِ، فَأَذْرَكَ أَنَّهُ قَطَعَ رَأْسَ الْعَنْزِ ... فَحَمِدَ اللَّهَ، وَزَادَ أَمْلُهُ فِي
النَّجَاحِ ... وَبَدَأَ يَسْتَعِدُّ لِلْقَضَاءِ عَلَى بَقِيَّةِ الرُّءُوسِ.

٦

اَشْتَدَّ غَضَبُ «التَّنِينِ» حِينَ رَأَى الْفَارِسَ يُعَاوِدُ الْإِقْتِرَابَ مِنْهُ، وَتَضَاعَفَتْ ضَرَاوَتُهُ.^٣
وَتَجَمَّعَتْ قُوَّتُهُ فِي رَأْسِي الْأَسَدِ وَالتُّعْبَانِ، وَأَنْدَفَعَ هَذَانِ الرَّأْسَانِ يَزِمِيَانِ بِالْجَمَرَاتِ،
وَيَقْدِفَانِ بِاللَّهَبِ إِلَى أَبْعَدِ الْمَسَافَاتِ، وَيُرْسِلَانِ دُخَانًا يَخْنُقُ الْأَنْفَاسَ، وَيُعْمِي الْعُيُونَ.

فَمَاذَا صَنَعَ الْجَوَادُ الْمُجَنِّحُ؟

لَمْ تُفَارِقِ الْجَوَادَ شَجَاعَتُهُ، فَاَنْدَفَعَ بِصَاحِبِهِ فِي حَذَرٍ شَدِيدٍ، وَسُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ؛ حَتَّى
أَصْبَحَ مِنَ «التَّنِينِ» عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ ... وَأَتَاكَ لِصَاحِبِهِ فُرْصَةٌ أُخْرَى. وَأَنْتَهَزَ الْفَارِسُ
الْفُرْصَةَ، فَسَدَدَ ضَرْبَةً قَوِيَّةً إِلَى أَحَدِ الرَّأْسَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ.

اَشْتَدَّ هَيْجُ «التَّنِينِ»، وَأَنْدَفَعَ نَحْوَ الْجَوَادِ وَالْفَارِسِ يُرِيدُ قَتْلَهُمَا. وَكَادَ يَتِمُّ لَهُ مَا أَرَادَ،
لَوْلَا أَنَّ الْجَوَادَ رَجَعَ فِي سُرْعَةِ الْبَرْقِ إِلَى الْوَرَاءِ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْلَمْ الْفَارِسُ وَلَا الْجَوَادُ،
فَقَدْ لَمَسَ فُكُ «التَّنِينِ» الْبُطْلَ، فَمَزَقَ كَتِفَهُ، وَأَصَابَ جَنَاحَ الْجَوَادِ إِصَابَةً خَفِيفَةً ... لَكِنَّ
«التَّنِينِ» خَسِرَ رَأْسَهُ الثَّانِي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ: خَسِرَ رَأْسَ الْأَسَدِ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ رَأْسَ الْعَنْزِ.

^٣ تضاعفت ضراوته: اشتدت عداوته.



٧

اشْتَدَّ غَيْظُ النَّتْنِ وَهَاجَ، حَتَّى كَادَ يَتَقَطَّعُ مِنَ الْغَيْظِ وَالْغَضَبِ. لَقَدْ قُطِعَ رَأْسَاهُ ...! فَجَمَعَ فِي الرَّأْسِ الْبَاقِي كُلَّ قُوَاهُ ... أَرْسَلَ التُّعْبَانُ عَمُودًا كَثِيفًا مِنَ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ الْمُلتَهَبِ، وَتَدَفَّقَ مِنْ فِيهِ سَيْلٌ مِنَ الْجَمْرِ وَالنَّارِ، وَأَخَذَ يَقْدِفُ بِهِ إِلَى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ، وَاشْتَعَلَتْ غَيْظَتُهُ، وَأَصْبَحَ رَأْسُهُ أَشْبَهَ بِالْبَرْكَانِ النَّائِرِ.

مَاذَا كَانَ مَوْقِفُ الْبَطْلِ أَمَامَ هَذَا الْهُجُومِ الْجَبَّارِ؟ مَاذَا كَانَ مَوْقِفُهُ — فِي هَذَا الْوَقْتِ وَجُرْحُهُ يَنْزِفُ مِنْهُ الدَّمَاءُ؟ هَلْ دَبَّ الْخَوْفُ إِلَى قَلْبِهِ؟ هَلْ تَرَاجَعَ أَمَامَ هَذَا الْخَطَرِ الدَّاهِمِ.

لَقَدْ زَادَهُ ذَلِكَ عَزْمًا عَلَى عَزْمٍ، وَهَجَمَ عَلَى التَّنِّينِ فِي عُنْفٍ، وَانْقَضَ عَلَيْهِ انْقِصَاصُ الصَّاعِقَةِ.

اشْتَدَّ غَضَبُ التَّنِّينِ، وَانْقَضَ عَلَى الْفَارِسِ وَالْجَوَادِ كَالْجَبَلِ، وَفَذَفَ بِجِسْمِهِ الْهَائِلِ عَلَى الْمَجْنَحِ وَرَاكِبِهِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَخْنُقَهُمَا، وَأَوْشَكَ أَنْ يَلْتَفَّ حَوْلَهُمَا، وَأَخَذَ يَقْذِفُ صَوَاعِقَ اللَّهَبِ،^٤ وَيُرْسِلُ سُحْبَ الدُّخَانِ.

أَدْرَكَ الْجَوَادَ حَرَجَ الْمَوْقِفِ، فَانْدَفَعَ فِي طَيْرَانِهِ إِلَى أَعَالِي السَّمَاءِ. فَمَا كَانَ مِنَ الثُّعْبَانِ إِلَّا أَنْ شَدَّدَ الضُّغْطَ عَلَيْهِمَا؛ حَتَّى سُدَّتْ أَمَامَهُمَا أَبْوَابُ النَّجَاةِ، وَكَادَا يَفْقِدَانِ كُلَّ أَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ ... وَهُنَا ظَهَرَتْ قُوَّةُ الْفَارِسِ، وَتَجَلَّى ثَبَاتُ قَلْبِهِ، وَصَدَّقُ شَجَاعَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَأَغْمَدَ سَيْفَهُ فِي صَدْرِ التَّنِّينِ!^٥

حِينَذَاكَ ضَعُفَتْ قُوَّةُ التَّنِّينِ، وَخَارَتْ^٦ عَزِيمَتُهُ، وَهَوَى^٧ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ، وَيَنْفُثُ مِنْ جَوْفِهِ نِيرَانًا حَامِيَةً ... حَتَّى مَاتَ. وَانْتَصَرَ الْبَطْلُ بَعْدَ كِفَاحٍ طَوِيلٍ.

وَعَرَفَ الشَّعْبُ أَخْبَارَ النَّصْرِ، فَتَنَفَّسَ النَّاسُ نَسِيمَ الْحُرِّيَّةِ وَالْأَمَانِ وَالْإِطْمِئْنَانِ ...

أُسْئَلَةُ الْفَصْلِ الرَّابِعِ

(س١) ما أثر تخريب الأصلة لديار قوم الفارس في نفسه؟ وما مظاهر التخريب؟

(س٢) ضع الكلمات الآتية في جمل مفيدة: التنين — صهيل — صواعق — مغارة.

(س٣) متى رفع التنين رأسه خارج الغار؟

(س٤) متى ظهرت قوة الفارس وثبات قلبه؟

(س٥) لم عاد الناس لوطنهم بعد فراقه؟

^٤ صواعق اللهب: نارًا شديدة.

^٥ أغمد سيفه في صدر التنين: وضعه فيه.

^٦ خارت: ضعفت.

^٧ هوى: سقط.

فَرَحَةُ الشَّعْبِ

١

فَرِحَ الشَّعْبُ بِنَاصِرِهِ، وَاحْتَفَلُوا بِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَرَدَّدَ اسْمُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ بِالشُّكْرِ، وَالْإِعْتِرَافِ لَهُ بِالْجَمِيلِ ... وَأَقْبَلَتْ عَلَى نَاصِرِ الشَّعْبِ وَفُودِ الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ، إِذْ كَانَ سَبَبًا فِي إِتْقَانِهَا — كَذَلِكَ — مِنْ أخطار «التَّيَّنِ».

لَمْ يَنْسَ «فَارِسُ الْفَوَارِسِ» الْجَوَادَ الطَّيَّارَ ... بَلْ عَرَفَ لَهُ فَضْلَهُ وَصَنِيعَهُ ... وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَنْحَنِي عَلَيْهِ، وَيَقْبَلُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ، هَمَسَ الْفَارِسُ فِي أُذُنِ جَوَادِهِ قَائِلًا: «بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤَدِّيَ وَاجِبَ الشُّكْرِ لِمَنْ عَرَّفَنِي بِكَ، وَهَدَانِي إِلَيْكَ. إِنَّهُ — أَيُّهَا الرَّفِيقُ — عَزِيزُنَا الصَّغِيرُ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ الْفُضْلِ الْأَوَّلِ فِي لُقْيَاكَ، وَهُوَ الَّذِي أَتَاكَ لِي الْفُرْصَةَ لِكَيَّ أَرَاكَ».

٢

رَحَّبَ الْجَوَادُ الطَّيَّارُ بِالْفِكْرَةِ، فَاِمْتَصَّى الْفَارِسُ صَهْوَتَهُ^١. وَسُرْعَانَ مَا طَارَ بِهِ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ». وَهُنَاكَ وَجَدَ الْفَلَّاحَ الْعَجُوزَ يَعْمَلُ فِي مَرْعَتِهِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ. وَنَظَرَ الْفَارِسُ فَرَأَى صَاحِبَهُ الصَّغِيرَ مُقْبِلًا عَلَيْهِ؛ فَفَرِحَ بِلِقَائِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَحْرَزَ مِنْ نَصْرِ عَظِيمٍ ... قَصَّ

^١ الصهوة: أعلى الظهر.

عَلَيْهِ قِصَّةُ التَّنِينَ ... وَبَيَّنَ لَهُ كَيْفَ عَاوَنَهُ الْجَوَادُ الطَّيَّارُ؛ حَتَّى تَغْلَبَ عَلَيْهِ، وَأَرَاخَ الشَّعْبَ مِنْهُ ...

فَرِحَ الصَّبِيُّ فَرَحًا شَدِيدًا، وَعَرَفَ أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ وَالْكَفَاحِ، نَصْرٌ وَنَجَاحٌ. ثُمَّ هُنَا الْفَارِسُ بِمَا أَصَابَ مِنْ مَجْدٍ.

فَأَجَابَهُ الْفَارِسُ الشُّجَاعُ: «لَنْ أَنْسَى مَا غَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ عَوَاطِفَ صَادِقَةٍ، وَشُعُورٍ كَرِيمٍ.. لَقَدْ تَمَّ لِي النَّصْرُ عَلَى عَدُوِّي بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَشَجَاعَةِ هَذَا الْجَوَادِ، وَصِدْقِ فِرَاسَتِكَ، أَيُّهَا الْعَزِيزُ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا: هَيَأْ لَهُ الْأَسْبَابَ، وَذَلَّلَ لَهُ الصَّعَابَ!»

٣

مَاذَا يَكُونُ أَمْرُ الْجَوَادِ الْمُجَنِّحِ؟

أَيُّقَى فِي «وَادِي الدُّمُوعِ»، أَمْ يَعُودُ مَعَ «فَارِسِ الْفُؤَارِسِ» إِلَى وَطَنِهِ؟
لَمْ يَشَأِ الْفَارِسُ الْبَطْلُ أَنْ يَحْبِسَ حُرِّيَّةَ رَفِيقِهِ، فَيُجْبِرَهُ عَلَى الرُّجُوعِ مَعَهُ.
الْتَفَتَ إِلَى الْجَوَادِ، وَقَالَ لَهُ: «وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّ الْمَعِيشَةَ هُنَا فِي «وَادِي الدُّمُوعِ».
فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْذَرَ عَلَيْكَ حَيَاتَكَ، أَوْ أَنْغُصَ عِيشَتَكَ، فَأُجْبِرَكَ عَلَى الْعُودَةِ مَعِيَ إِلَى وَطَنِي. نَعَمْ: يُؤْلَمُنِي فِرَاقُكَ، لِأَنَّهُ يَحْرِمُنِي جَمِيلِ مَوَدَّتِكَ، وَكَرِيمِ عِشْرَتِكَ. وَلَكِنِّي أَرَاكَ فَرَحًا بِرُجُوعِكَ إِلَى هَذَا الْوَادِي؛ لِتَعُودَ فِيهِ إِلَى حَيَاتِكَ الطَّبِيعِيَّةِ. بَعْدَ أَنْ قَضَيْتَ هَذِهِ الْمُدَّةَ مَعِيَ فِي كِفَاحٍ وَنِضَالٍ ... وَبَعْدُ؛ فَسَارُفُ اللَّجَامِ الْمَسْحُورِ مِنْ فَمِكَ؛ لِتَنْطَلِقَ كَمَا تَشَاءُ، مَتَى تَشَاءُ ...

وَدَاعَا، يَا خَيْرَ الْأَصْدِقَاءِ، وَعِشْتَ سَعِيدًا فِي وَادِيكَ الْفَسِيحِ!»

وَحَاوَلَ الْفَارِسُ أَنْ يُفَارِقَ الْفَرَسَ ... اخْتَنَقَ صَوْتُهُ بِالْبَكَاءِ.

وَوَقَفَ الْجَوَادُ الْأَشْهَبُ^٢ جَامِدًا فِي مَكَانِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ كِتْمَانَ حُزْنِهِ، وَإِخْفَاءَ آلَمِهِ. عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَهُ الْبَطْلُ، فَمَالَ بِرَأْسِهِ عَلَى كَتِفِهِ، وَصَهَلَ وَحَمَحَمَ،^٣ وَلَوْ اسْتَطَاعَ لَتَكَلَّمَ! وَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ يُعْلِنُ لِفَارِسِهِ أَنَّهُ يُفَضِّلُ الْبَقَاءَ مَعَهُ، عَلَى أَنْ يَعِيشَ حُرًّا حَوْلَ «وَادِي الدُّمُوعِ»!

أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْفَارِسُ، وَرَاحَ يَمْسَحُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَيُحْيِيهِ، وَقَالَ لَهُ: «مَا أَكْرَمَ إِخَاءَكَ، وَأَنْدَرَ وَفَاءَكَ، وَأَعْظَمَ كِفَاحَكَ وَذَكَاءَكَ. لَقَدْ حَقَّقْتَ لِي مَا تَمَنَيْتُ، ثُمَّ تَفَضَّلْتَ فَاخْتَرْتَ الْبَقَاءَ مَعِي؛ لِأَسْعِدَ بِقُرْبِكَ، وَأَنْعَمَ بِرُفْقَتِكَ. فَشُكْرًا لَكَ: أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْكَرِيمُ.»
وَدَعَّ الْفَارِسُ الْغُلَامَ. بَعْدَ أَنْ اتَّفَقَ مَعَهُ عَلَى أَنْ يَزُورَهُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ.
أَقْبَلَ الْغُلَامُ عَلَى الْفَارِسِ وَالْفَرَسِ يُودِّعُهُمَا، وَيَدْعُو اللَّهَ لَهُمَا، وَيَتَمَنَّى لَهُمَا سَفَرًا سَعِيدًا، وَعَوْدًا حَمِيدًا.

قَالَ الْفَارِسُ لِلْجَوَادِ: «لَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نُسْرِعَ إِلَى الْوَطَنِ الْحَبِيبِ، فَهَيَّا بِنَا، هَيَّا...» طَارَ الْجَوَادُ بِرَفِيقِهِ — فِي سُرْعَةِ الرِّيحِ — حَتَّى بَلَغَ أَرْضَ الْوَطَنِ، فِي زَمَنٍ قَصِيرٍ.

وَدَفَعَ النَّاسُ نَحْوَ الْفَارِسِ مُسْتَقْبِلِينَ مُهْنَتَيْنِ وَتَغَنَّوْا بِبَطُولَتِهِ فَرَحِينَ مُسْتَبَشِّرِينَ.

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

لَمْ يَنْسَ الْفَارِسُ وَفَاءَ الْجَوَادِ وَالصَّبِيَّ الصَّغِيرِ، وَظَلَّ يَذْكُرُ لَهُمَا مَا لَقِيَ مِنْهُمَا فِي الشَّدَّةِ وَالضِّيقِ: مِنْ عَوْنِ صَادِقٍ، كَانَ سَبَبًا فِيَمَا ظَفَرَ بِهِ مِنْ نَجَاحٍ وَتَوْفِيقٍ.

وَدَاعَتْ شُهْرَةُ الْبَطْلِ فِي الْأَفَاقِ، وَأَصْبَحَتْ شَجَاعَتُهُ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ، وَصَارَ جِهَادُهُ مَثَلًا أَعْلَى بَيْنَ الْأَبْطَالِ الْخَالِدِينَ.
مَرَّتِ السَّنُونَ، وَتَعَاقَبَتِ الْأَجْيَالُ وَالْقُرُونُ، وَلَا يَزَالُ التَّارِيخُ — إِلَى الْيَوْمِ — يَذْكُرُ ذَلِكَ الْفِدَائِيَّ الْعَظِيمَ.

^٢ الأشهب. الأبيض.

^٣ محممة الفرس: صوته.

أُسْئَلَةُ عَلَى الْفَصْلِ الْخَامِسِ

- (س١) لم شكر الفارس الصبي؟ وماذا قال له؟
(س٢) اذكر نص الحديث الذي قاله للجواد: بعد النصر. بعد الذهاب لعين الدموع.
(س٣) ما مظاهر الوفاء والمحبة للفارس التي ظهرت على الجواد المجنح؟
(س٤) ضع الكلمات الآتية في جمل تامة: حمم — يحلق — خارت — صواعق.